

طرابلس: تحديات الهوية بين الثابت والمتحول عيش واحد رغم محاولات تشويه صورتها!..؟

الدكتور عبد الغني عماد

للمدينة تاريخ ومكان وهوية. أحد أفضل التعريفات التي قرأتها عن المكان هو الذي يعتبره
حيّزاً إنسانياً يحتوي على قدر من العادات والتقاليد والصيغ الفكرية التي يشكل الزمن بعداً حقيقياً
في إنتاجها وتكريسها متكيفاً بذلك مع تحوّل وظيفة المكان بحدّ ذاته.

المكان الجيد هو الموصل الجيد للأفكار والتفاعلات، ولكي نفهم طبيعة تفاعل الانسان مع المكان
وسلوكة فيه يفترض ان تفهم كيف يدرك الانسان الأشياء المحيطة به.

الأبعاد الثلاثة

هناك ثلاثة أبعاد تنتظم فيها سلوكياتنا تجاه أي مكان وتتمثل في: البعد الاجتماعي - البعد المكاني
- البعد الإدراكي.

في طرابلس ثمة خلل على مستوى الأبعاد الثلاث، على المستوى الاجتماعي تعاني المدينة من
مشاكل لا حصر لها تبدأ بالفقر والتهميش والبطالة ولا تنتهي بأزمة التلوث والكهرباء، وعلى
مستوى البعد المكاني الذي يحقق الهوية المدنية التفاعلية التواصلية او ما يعرف بروح المكان فقد
تحوّلت المدينة الى أحياء مفككة لا يربطها نسيج اقتصادي او اجتماعي.

على مستوى البعد الإدراكي، وهو الأهم اليوم في علاقتنا بالمدينة، فهذا البعد يقوم بالأساس على
الاتصال والتواصل والتفاعل في «المجال المشترك» الذي تولد فيه الثقافة المدنية والهوية
المشتركة المدنية، هذا الانتظام للبعد الإدراكي في علاقتنا بالمدينة يتآكل بفعل تقلص مساحات
المجالات المشتركة الحاضنة الطبيعية للثقافة المدنية. غابت الأحزاب السياسية وتفككت، تلاشى

دور النقابات والهيئات المهنية والثقافية، أما مؤسسات المجتمع المدني فهي مفككة، وهي أهلية الطابع أكثر مما هي مؤسساتية (تهاوت الشركات - المعامل - المصانع...) (جامعة مفككة الأوصال وبعضها يتوزع فيما يشبه الأبنية السكنية)....

بل ان نسيج المدينة وبنيتها العمرانية والسوسيولوجية بدأت تشهد نوعاً من التخلع بين أحيائها وأطرافها فتتحول الى أحياء كبرى يترتّف قسم كبير منها ولا يجمعها انتظام مدني حول مركز حيوي يشكل قلب المدينة الجامع.

هل تعني هذه المقدمة ان هوية طرابلس مدينة العيش الواحد في خطر؟ هل نحن أمام تحولات بنيوية يمكن ان تؤثر في طبيعة الشخصية الطرابلسية المدنية؟.

جواباً أقول: ينبغي ان نميّز بدقة بين الثابت والمتحول في هوية وثقافة المدينة وأهلها. فإذا تحدثنا عن سنة طرابلس بكونهم الجماعة المكونة لغالبية سكانها، فنحن لا نستطيع ان نتجاهل حقيقة سوسيولوجية تاريخية تتمثل في طبيعة بنية هذه الجماعة التاريخية والثقافية، فهم أولاً سكان ثغور وسكان مدينة بنفس الوقت وقد ترتب على هذه الحقيقة المزدوجة بنية معرفية مدنية مركبة لا يمكن إنكارها منسجمة مع تاريخ وحضارة المنطقة.

يعني هذا الكلام باختصار ان سنة طرابلس ينظرون الى مسؤوليتهم التاريخية كورثة لسكان الثغور كأصحاب مهمة إيمانية ودعوية لحماية الدين وحفظ الرسالة من جهة، وبحكم سكنهم في المدينة من جهة أخرى أكسبهم هذا سمات أهل الحضر وجعلهم أكثر انفتاحاً على الآخر بحكم الاختلاط والتعارف والتفاعل مع جيرانهم من أبناء الطوائف الأخرى داخل المدينة ومع عالم البحار وما وراءه وما يأتي عبره من تجارة وروابط اقتصادية وخدمائية وأبناء الحضارات الأخرى.

خلاصة القول ان هوية المدينة الثابت منها تكونت من نسيجين صاغتهما وقائع التاريخ عيشاً واحداً وذهنية واحدة جعلت مع الأيام من عروبة طرابلس عروبة صلبة وذات نكهة خاصة، وجعلت إيمان أبنائها أكثر تفتحاً وإسلامهم أكثر تسامحاً وقبولاً للآخر.

وهذه السمات طبعت الشخصية الطرابلسية بشكل عام وتأصلت في هوية كل أبنائها مسلمين ومسيحيين، وهي بالتالي لن تؤثر عليها حملات إعلامية عابرة او مغرضة هنا او هناك...

هذه السمات ليست تركيباً مصطنعاً، بل هي أصبحت أساس التكوين في الشخصية الطرابلسية، بل هي لب البنية المعرفية المشكلة لثقافتها.. وقد تركت أثرها ليس فقط في السلوك والعمران والآثار الاسلامية والمسيحية المتجاورة والشاهدة على ذلك، بل أيضاً تركت أثرها في نمط العيش وأساليب الحياة اليومية وعاداتها المشتركة وفي مجموعة من القيم الاسلامية التي يحرص عليها الطرابلسي ويتمسك بها فضلاً عن مواقف تاريخية ومعاصرة للمدينة تؤكد التزامها بالقضايا العربية والاسلامية.

هذه الحقيقة المزدوجة الآتية من إرث سكان الثغور ورسالتهم الايمانية والجهادية الى جانب البنية المدنية وما تفرضه على ساكنيها من علاقات وروابط مولدة للتسامح والاعتراف بالآخر لا تعني انشطار الشخصية الطرابلسية بقدر ما تدل على غنى هويتها الثقافية وعمقها ودينامية التفاعلات التي شهدتها على مدى التاريخ، وأصالتها الحضارية.

لا يعني هذا الكلام ان «الثابت» في الهوية الثقافية للمدينة يبقى ثابتاً الى أبد الأبد، قد تتحول عناصر منه وتتحلل بفعل تطورات ووقائع وممارسات. ومن هنا أهمية تحصين العناصر الايجابية في الهوية الثقافية وخطورة ما يجري من محاولات لتشويه الصورة عن طرابلس. الصورة النمطية عن طرابلس المتطرفة التي يحاول البعض تسويقها بشكل منتظم تستند على آليات أهمها:

الأحكام المسبقة.

التعميم.

الإسقاط.

التمييز. Stereotype.

تفكيك الصورة النمطية يحتاج الى عمل مشترك من مختلف مكونات المجتمع المدني (حين نشرت «الديار» خبر منع بيع الصلبان في سوق الصاغة في تجنّ واضح لم يتقدم أحد بدعوى ضد الجريدة رغم ان الخبر لقي رواجاً وتم التصدي له...)

أفضل الطرق لمحاربة تشويه الصورة، هي إظهار الصورة الحقيقية وتفعيل الاتصال والتواصل المباشر وبناء المجالات المشتركة وتعزيزها.

كل الدراسات حول مواجهة الصور النمطية تستند على ان الاتصال المباشر والفعال بين الجماعات يسهم في تخفيف حدة الأفكار النمطية، والاعتقادات الخاطئة، ويفتح المجال أمام تغييرها، لكن هذا التغيير يعتمد كثيراً على الموقف والطريقة الذي يحدث فيه الاتصال. ولكي تنجح هذه المسألة يجب ان يحدث الاتصال والتواصل والحوار تحت شروط خاصة وفي ظل مجالات مشتركة تتمتع بمواصفات تعزز التواصل المشترك والفعال.

أما بناء المجالات المشتركة فهو شرط أساسي كي تجتمع في فضائه الجماعات، فربط طرابلس بالشمال يمكن ان يحدث بشكل فعال على سبيل المثال مستوى الشباب عندما يتم إنجاز المجمع الجامعي لكليات الجامعة اللبنانية الذي يمكن ان يحدث في فضائه تواصل واتصال بين أكثر من 15 ألف طالب وطالبة من مختلف أفضية الشمال على مختلف انتماءاتهم الطائفية، مثل هذه المشاريع الجامعة التي تخلق «المجال المشترك» الجامع للتواصل والاتصال الدائم بين مختلف الفئات من أبناء طرابلس والشمال، يعتبر مقدمة لكسر الصور النمطية، هذا فضلاً عن العديد من الأنشطة الأخرى التي يمكن القيام بها بطبيعة الحال.

كلمة د. عبد الغني عماد في ندوة اقيمت في 4 أيلول 2014 في بيت الفن وشارك فيها الأب ابراهيم سروج. نُشرت في جريدة البيان بتاريخ 26 أيلول 2014